مقال رأي

مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Studies and Planning

الربيع العربي بعد خمسة عشر عاماً
لماذا فشلت جهود التحول الديمقراطي؟

ياسر كوتي

سلسلة اصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط

مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Studies and Planning

الربيع العربي بعد خمسة عشر عاماً: لماذا فشلت جهود التحول الديمقراطي؟

سلسلة اصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط / قسم الابحاث / الدراسات السياسية

الاصدار / مقال رأي

الموضوع / شؤون إقليمية ودولية

ياسر كوتي/ طالب دكتوراه في العلوم السياسية بجامعة بوسطن، حيث يركز بحثه على الجغرافيا السياسية للشرق الأوسط، والسياسة الخارجية العراقية، والعلاقات الأمريكية العراقية، وسياسات النظام. شغل مناصب بحثية وتحليلية مختلفة في كل من الولايات المتحدة والعراق، وكان آخرها مستشاراً سياسياً أول في السفارة الهولندية في العراق .

ترجمة / ميلاد النوفلي

عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركز مستقلٌ، غيرُ ربحيٍّ، مقرُّه الرئيس في بغداد، مهمته الرئيسة -فضلاً عن قضايا أخرى- تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حول قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ، ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام. ويسعى المركز إلى إجراء تحليلٍ مستقلٍّ، وإيجاد حلول عملية جليّة لقضايا معقدة تهمُّ الحقليْنِ السياسي والأكاديمي.

ملحوظة:

لا تعبّر الآراء الواردة في المقال بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز، وإنّما تعبّر عن رأي كتابِها.

حقوق النشر محفوظة © 2025

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org
Since 2014

في الأيام الحماسية من أواخر عامي 2010 و2011، خرج ملايين الأشخاص في أنحاء الشرق الأوسط وشمال أفريقيا إلى الشوارع والساحات العامة مطالبين بالكرامة والعدالة، وفوق كل شيء، بالحرية. من تونس إلى القاهرة إلى بنغازي، انهارت عقود من القمع السياسي تحت القوة الجارفة للإرادة الشعبية. وفي نظر كثير من المراقبين، بدا أن القوس الطويل للتاريخ ينحني، أخيراً، نحو الديمقراطية.

لكن ذلك القوس سرعان ما ارتدّ. عاد مستبدون جدد، واندلعت حروب أهلية، وتبدّدت الحركات التي وعدت -ولو للحظة- بالكثير، لتحلّ محلها خيبة الأمل واليأس والصمت. فالربيع العربي، الذي احتُفي به يوماً بوصفه صحوة ثورية، بات اليوم مثالاً تحذيرياً.

ولفهم أسباب ذلك، يفيد الرجوع إلى أعمال الفيلسوفة والمنظّرة السياسية حنة آرنت. ففي كتابها «عن الثورة»، قدّمت آرنت بصيرة لاذعة مفادها أن الثورات غالباً ما تفشل لا لافتقارها إلى الحماسة أو الوضوح الأخلاقي، بل لأنها تخلط بين انفجار المطلب الشعبي الخام بالتغيير وبين تحقيق الحرية ذاتها. فالحرية، في نظر حنة آرنت، ليست حالة وجدانية ولا لحظة عابرة؛ بل هي فضاء هشّ ومنظّم ينبغي أن يكون عاماً وتشاركياً، والأهم من ذلك، مؤسسياً على نحو صارم.

للثورات إيقاع خاص؛ فهي تبدأ بصرخة ضد الظلم، وتندفع إلى الأمام بطاقة غير مألوفة، ثم تواجه المهمة الأصعب والأهدأ: بناء شيء جديد. وهنا، في هذا الفضاء الانتقالي، تتفكك محاولات كثيرة.

بدأ الربيع العربي بمثل تلك الصرخة. ففي 17 كانون الأول/ديسمبر 2010، أقدم محمد البوعزيزي، بائع فاكهة تونسي تعرّض للإذلال على يد السلطات المحلية، على إضرام النار في نفسه. وقد أشعل فعله موجة احتجاجات في أنحاء العالم العربي أطاحت بأنظمة حكم استمرّت عقوداً. وفي غضون أسابيع، اختفى رجال قدّموا أنفسهم كفراعنة أو كأنهم لا يُقهرون، مثل زين العابدين بن علي في تونس، وحسني مبارك في مصر، ومعمر القذافي في ليبيا.

ومع ذلك، فإن تغيير النظام ليس ثورة. فإزاحة الحاكم، في حدّ ذاتها، لا تُشكّل ثورة ناجحة. ووفقاً لسرد حنة آرنت، تتطلّب الثورات الحقيقية إنشاء مؤسسات سياسية قادرة على احتضان الحريات الديمقراطية وتنظيمها. وهذا يعني بناء نظام مستدام، لا مجرد هدم نظام قائم. ففي بلدان الربيع العربي، لم تستطع اللحظة المُسكرة للقوة -اندفاع الناس إلى الساحات العامة- أن تحافظ على ذاتها. وسرعان ما أفسحت مهمة بناء الحرية المجال لحروب خنادق أيديولوجية بين الإسلاميين والعلمانيين، وبين التكنوقراط والشعبويين، وكلٌّ منهم يدّعي تمثيل الإرادة الحقيقية للشعب. وكانت النتائج متوقعة: شلل، وتراجع، وفي نهاية المطاف، إعادة ترسيخ السيطرة السلطوية.

وقد حذّرت حنة آرنت من هذا الخطر. فعندما ترفع الثورات نقاء «الشعب» فوق الواقع الخشن للمؤسسات السياسية، فإنها تزرع بذور فنائها الذاتي. وفي غياب هياكل قانونية متينة، يتقدّم قادة كاريزميون، واعدين بتجسيد إرادة الشعب على نحو أكمل مما يمكن لأي برلمان أن يحقّقه. وتونس، التي اعتُبرت يوماً قصة نجاح للربيع العربي، تُجسّد هشاشة المكاسب غير المرتكزة إلى مؤسسات. فبعد بداية واعدة، انزلقت البلاد إلى جمود سياسي. وردّ الرئيس قيس سعيّد، المنتخب بوصفه شخصية شعبوية من خارج المنظومة السياسية، بتعليق عمل البرلمان، وإقالة رئيس الوزراء، والحكم بالمراسيم. وادّعى أنه يصحّح مسار ديمقراطية متعثّرة؛ لكنه، في الواقع، كان يقوّضها. أما في مصر، فكان القوس أكثر انحداراً؛ إذ فاز محمد مرسي، مرشّح جماعة الإخوان المسلمين، بأول انتخابات حرّة في البلاد عام 2012. غير أن رئاسته اتسمت باستقطاب حاد وفشل في الحوكمة. وفي العام التالي، أطاح انقلاب عسكري به، ونصّب اللواء عبد الفتاح السيسي، الذي سارع إلى تفكيك التجربة الديمقراطية وإرساء نظام يُعدّ، على الأرجح، أكثر قمعاً من نظام مبارك.

لم تكن المشكلة في كلتا الحالتين غيابَ الانتخابات، بل غيابَ البُنى الدائمة القادرة على التوسّط في ممارسة السلطة، وتقييد النفوذ، وصون الحرية العامة عبر الزمن.

فلماذا عجزت هذه البلدان عن بناء مثل هذه البُنى؟ تقدّم حنة آرنت تشخيصاً آخر: تنهار الثورات عندما تخلط بين «المسألة الاجتماعية» -المتمثّلة في الفقر والبطالة وعدم المساواة- وبين المسألة السياسية المتعلّقة بكيفية تنظيم الحياة السياسية الجماعية.

في المجتمعات المثقلة بالحرمان الواسع، يمكن للأمر السياسي أن يصبح سريعاً تابعاً لأمر اقتصادي، فالجوع لا يصبر. وعندما يطالب المواطنون بالخبز والكرامة في آنٍ واحد، يُغرى القادة بالوعد بهما معاً، لينتهوا في النهاية إلى عدم الوفاء بأيٍّ منهما. يفقد المشروع الثوري تماسكه، وتتحوّل الدولة إلى مزوّد خدمات، لا إلى ساحة للحياة السياسية.

وهكذا لا تُصان الحرية. تذكّرنا حنة آرنت بأن الثورة الأميركية، بخلاف الثورة الفرنسية أو التجارب العربية، نجحت لا لأنها عالجت جميع مظالمها، بل لأنها ظلّت مركّزة على بناء المؤسسات السياسية. فلم تنشغل بضرورة حلّ الفقر أو البطالة، ما أتاح للآباء المؤسسين تصميم بنية حوكمة دائمة قوامها الضوابط والتوازنات، والقوانين، والحقوق، بما مكّنها من التطوّر والاستمرار.

وعلى النقيض من ذلك، غمر الربيع العربي سيلُ من التوقّعات المجتمعية. فقد طالب الناس بالحرية، نعم، لكنهم طالبوا أيضاً بالوظائف والعدالة والكرامة دفعةً واحدة. ومن دون مؤسسات تُلطّف هذه المطالب وتوجّهها، تحوّلت المرحلة اللاحقة للثورة إلى ساحة مفتوحة بلا ضوابط. وحيث تفشل السياسة، تندفع السلطة لملء الفراغ.

ومع تطوّر الأحداث، برز بعدُ أكثر مأساوية أيضاً - نزوعُ إلى النقاء رأت حنة آرنت أنه قاتل. ففي أعقاب الثورات، سعى الفاعلون السياسيون في العالم العربي إلى قدر أقل من التسوية وقدر أكبر من التبرير الأخلاقي. أصرّ الإسلاميون على أنهم يمثّلون إيمان الشعب، وأصرّ العلمانيون على أنهم يجسّدون تطلّعاته الحداثية. ادّعى كلٌّ منهم احتكار الشرعية، ولم يكن أيٌّ منهم مستعداً حقاً للتعايش أو لتقاسم السلطة.

وفي هذا الفراغ، تقدّم رجال أقوياء، مثل عبد الفتاح السيسي وقيس سعيّد، واعدين بإعادة النظام، وإنعاش الاقتصاد، وتمثيل الشعب على نحوٍ أكثر أمانة مما استطاعت النخب السياسية الجديدة أن تفعله. ولم يكن صعودهم مجرّد خيانة للثورة، بل كان، من بعض الوجوه، خاتمتها المنطقية. وهذا هو الدرس الأخير لحنة آرنت: لا تفشل الثورات عندما يعود الطغاة، بل تفشل عندما لا يستثمر أحد في بناء المؤسسات التي تمنع عودتهم.

إن مأساة الربيع العربي لا تكمن في افتقار شعوبه إلى الشجاعة؛ فقد امتلكوا منها الكثير، بل في افتقار قادته إلى الرؤية بعيدة المدى-لا الرؤية الطوباوية، بل الرؤية المتجذّرة في الواقع. فبدون مؤسسات تحفظها، تصبح الحرية الديمقراطية مجرّد إحساس، والإحساس، مهما كان نبيلاً، عابر.

لِدولةٍ فاعلةٍ ومجتمعٍ مُشارِك

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org